محاضرات في الأدب العباسي

التجديد في الشعر العباسي

إنَّ غالبية الشعراء العباسيين مولعون بالتجديد إلى جانب الاعتماد على الموروث، وهذا التجديد يعود إلى التطور الكبير الذي شمل جوانب الحياة المختلفة آنذاك، وقد شمل التجديد في الشعر العباسي ما يأتي:

1. التجديد في المعاني والافكار:

اتسعت الثقافة في العصر العباسي، وكثرت منافذها وتعددت ألوانها، وقد ظهر أثر ذلك جلياً في الحياة الفكرية، والشعر جانب من هذه الحياة، إذ نراهُ يزدحم بالمعاني والأفكار، والصور والأخيلة. ومن يراجع دواوين الشعراء والمجاميع الأدبية يجد تلك الحقيقة واضحة للعيان.

إنَّ الصور الشعرية التي نلمس فيها الجدة والطرافة كثيرة في الشعر العباسي من ذلك أبيات لبشار بن برد أُعجب بها أبو عمرو بن العلاء، وَعَدَّ بَشّاراً من أفضل الشعراء لتجديده وإبداعه فيها، قال بشار:

خَتَمَ الحُبُّ لَهَا فِي عُنُقِي مَوْضِعَ الخَاتَمِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَمْ

وبرز مسلم بن الوليد (صريع الغواني) في ابتداع المعاني، وكثيراً ما ذكره المأمون في مجالسه وفَضَّلَه على غيره من الشعراء، ومن شعره الذي أعجب به النقاد والقراء قوله:

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِنْ ضَنَّ الجَوَادُ بِهَا وَالجُوْدُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الجُودِ

وكذلك اشتهر أبو تمام بفتق أكمام الفكرة وتزيينها باللفظ الجميل والجرس الرقيق. وبلغ ابن الرومي مرتبة عالية في التجويد باللفظ والعبارة، والتعمق في المعاني، وابتداع الصور الجديدة، كقوله:

نَظَرَتْ فَأَقْصَدَتِ الفُؤَادَ بِسَهْمِهَا ثُمَّ انْثَنَتْ نَحْوِي فَكِدْتُ أَهِيْمُ

وَيْلاهُ إِنْ نَظَرَتْ وَإِنْ هِيَ أَعْرَضَتْ وَقْعُ السِّهَامِ وَنَزْعُهُنَّ أَلِيْمُ

يكمن التجديد في المعنى في البيت الثاني، فقد صور الشاعر ما يعانيه من ألم بسبب قرب حبيبته أو بعدها عنه بقوله (ويلاه)، فشبه إقبالها عليه ونظرها إليه بدخول السهم في جسده، كما

شبه ألم ابتعادها عنه وإعراضها عنه بنزع السهم من جسده؛ أي إخراجه، وهذا التشبيه جديد ولم نجده عند غيره من الشعراء.

ومن المعاني المستحدثة في العصر العباسي قول بشار بن برد:

إنَّ الـمَـطَايَا تَـشْـتَكِيك لِأَنَّـهَا   قَطَعَتْ إِلَيْـكَ سَبَـاسِباً وَرِمالا

فَـإِذَا وَرَدْنَ بِـــنا وَرَدْنَ مُـخِـفَّـةً   وَإِذَا رَجَعْنَ بِنَا رَجَعْـنَ ثِـقَـالا

ومن التجديد في المعاني قول الشاعر دعبل الخزاعي:

لا تَعْجَـبِـي يَا سَـلْمَ مِنْ رَجُـلٍ   ضَحِـكَ المَشِيْبُ بِـرَأْسِهِ فَبَكَى

ويبدو أن هذه الصورة أعجبت بعض الشعراء، فهذا ابن المعتز يكرر صورة ضحك الشيب في قوله:

مَـاتَ الهَوَى مِنِّـي وَضَاعَ شَبَابِي   وَقَـضَيْـتُ مِـنْ لَـذَّاتِــهِ آرَابِـي

وَإِذَا أَرَدْتُ تَـصَابِيَاً فِي مَـجْـلِسٍ   فَالشَّيْبُ يَضْحَكِ بِي مَعَ الأَحْبَابِ

ومن الشعراء من أضفى على شعره أدلة منطقية، اكتسبها من الثقافة التي تلقاها، أو من مشاهداته وتجاربه الخاصة، يريد بها إقناع السامعين بما جادت به قريحته، كقول أبي تمام:

لا تُـنْـكِرِي مِـنْهُ تَـخْدِيدَاً تَـجَلَّـلَهُ   فَالسَّيْفُ لا يُزْدَرَى إِنْ كَانَ ذَا شَطَبِ

وقوله:

لا تُنْكِرِي عَطَلَ الكَرِيمِ مِنَ الغِنَى   فَالسَّـيْـلُ حَـرْبٌ لِـلمَكَانِ العَالِـي

نلاحظ أن البيتين يشتملان على معنيين جديدين، وهما إقامة الدليل على ما أنكرته المُخاطَبة، وكلا الدليلين مأخوذان من التفكير المنطقي من خلال الموازنة بين الأمر الذي أنكرته المخاطبة وبين صورة منتزعة من الواقع المُشاهَد، وهي صورة لا يمكن إنكارها، وبذلك يستطيع الشاعر إقناع المقابل بفكرته معتمداً على التجديد الذي أحدثه في الفكرة. وقد استهوت فكرةُ إقامة الدليل على المعنى المقصود بالمشاهد الواقعية الشاعرَ أبا تمام، فأخذ يكثر من هذه المعاني، ومن ذلك قوله:

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَـشْــرَ فَـضِـيـلَـةٍ   طُـوِيَتْ، أَتاحَ لَـها لِسانَ حَسُودِ

لَوْلا اشْتِـعالُ النَّـارِ فِيمَا جَاوَرَتْ   مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

واستعان الشعراء في هذا العصر بالتجسيد والتضخيم، والمبالغة والتهويل، وهذه الأمور – وإن لم تكن من مستحدثات هذا العصر – إلاّ أنها أصبحت سمة بارزة اتَّكَأَ عليها الشعراء في كثير من الأحيان، ولا سيما في المديح والغزل، ويبدو أن المتلقين كانوا يرتاحون لها ويحبون لسماعها، ومن ذلك قول أبي نواس:

وَأَخَـفْتَ أَهْـلَ الشِّرْكِ حَتَّـى إِنَّـهُ لَتَخَافُكَ النُّطَفُ الَّتِي لَـمْ تُـخْلَقِ

وقول المتنبي:

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولاً أَنَّـنِي رَجُلٌ لَوْلا مُـخَاطَـبَتِي إِيَّـاكَ لَـمْ تَرَنِـي

وإلى جانب المبالغة يلاحظ القارئ حرص كثير من الشعراء على المحسنات اللفظية، إذ عدوها من مراتب التجديد والإبداع، وقد جاءت في شعرهم أحيانا مقبولة، لها وَقْعٌ حسن في النفس، وأحيانا مرذولة بعيدة عن الذوق، لا جمال فيها ولا بهاء.

فمن النوع الأول قول علي بن الجهم:

أَمَا تَـرَى اليَـوْمَ مَا أَحْلَى شَـمَائِلَهُ صَحْـوٌ وَغَـيْـمٌ وَإِبْـرَاقٌ وَإِرْعَـادُ

كَـأَنَّـهُ أَنْـتَ يَـا مَـنْ لا شَبِيهَ لَهُ وَصْـلٌ وَهَـجْـرٌ وَتَقْرِيبٌ وإِبْـعَـادُ

كَأَنَّـما يَـوْمُنَا فِـعْلُ الـحَبِيبِ بِنَا بَـــذْلٌ وَبُـخْـلٌ وَإِيْـعَـادٌ وَمِيـعَادُ

فأعجاز هذه الأبيات تشتمل على فن بلاغي جميل يدخل في باب المحسنات اللفظية، وهذا الفن يسمى التطريز، وهو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن، فيكون التطريز فيها كالطِّراز في الثوب.

ومن النوع الثاني قول مسلم بن الوليد:

سُـلَّتْ وَسُـلَّتْ ثُـمَّ سُـلَّ سَلِيلُهَا فَـأَتَى سَـلِيلُ سَـلِيلِهَا مَـسْـلُولا

نلاحظ أن الشاعر قد بالغ في المجانسة إلى درجة جاء فيها البيت نابياً ثقيلاً.

2. التجديد في الألفاظ والأساليب:

كانت صلة كثير من الشعراء قوية بالشعر القديم، فبشار بن برد مثلاً كان يجاري أمرأ القيس، ويعتمد محاكاة الأساليب القديمة، ولا عجب حين قال الأصمعي: (بَشّار خاتمة الشعراء، والله لولا أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم). وأبو نواس قال عن نفسه: (ما ظنّكم برجل لم يقل الشعر حتى روى دواوين ستين امراة من العرب، فما ظنكم بالرجال؟). وعرف عن أبي تمام روايته للقديم من الأشعار، حتى قال عنه الحسن بن رجاء: (ما رأيت أحداً قط أعلم بجيّد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام).

فالشعراء في العصر العباسي كانوا ينقسمون إلى قسمين، قسم يجاري القدامى تارة والمحدثين تارة أخرى, وفئة أخرى من الشعراء سلكت طريقاً ميسوراً يسميهم نجيب محمد البهبيتي أنصار المدرسة الشعبية، وهم كثيرون، على رأسهم أبو العتاهية وربيعة الرقي, وقد سار شعرهم بين محبي الأدب، ووجد الناس فيه راحة من كَدِّ الذهن, ومن نماذج هذا الشعر قول ربيعة الرقي:

حَـمَامَةُ بَـلِّـغِي عَنِّـي سَـلامَـا ... حَـبِيباً لا أُطِـيــقُ لَــهُ كَــلامَـا
وَقُولِـي لِلَّتِـي غَضِـبَـتْ عَلَيْنَا ... عَــلامَ وَفِـيمَ يَـا سَـكَنِي عَلامَا

ولعل من الأسباب التي أدت إلى أن يوظف الشعراء الألفاظ السهلة، والمعاني البسيطة، أن بعض هذه القصائد كانت تُغنّى، ومن هذا النوع من الشعر قول أبي نواس:

أَيْنَ الـجَوابُ وَأَيْــنَ رَدُّ رَسائِـــلِي ... قَـالَتْ: تَـنَـظَّـرْ رَدَّهَا فِـي قَــابِلِ
فَمَدَدْتُ كَفِّي ثُـمَّ قُلْتُ: تَصَدَّقِي ... قَالَتْ: نَـعَمْ، بِـحِـجَارَةٍ وَجَـنَادِلِ
إِنْ كُـنْتَ مِسْكِيناً فَـجَاوِزْ بَـابَـنَا ... وَارْجِــعْ فَـمَا لَكَ عِنْـدَنَا مِنْ نَـائِلِ
يَا نَـاهِرَ الـمِسْكِيـنِ عِنْدَ سُـؤَالِهِ ... اللهُ عَـاتَـبَ فِـي انْتِـهَارِ السَّـائِلِ

وقد تسرب كثيرٌ من الألفاظ والأفكار إلى الساحة الأدبية من الأقوام الذين امتزجوا بالعرب وتصاهروا مع الكثيرين منهم، ومن يراجع الكتب التي عنيت بالألفاظ الدخيلة مثل المُعَرَّب للجواليقي يجد ألفاظاً كثيرة أصبحت مألوفة الاستعمال في الشعر والنثر مثل: الفالوذج, والديباج, والطيلسان, والنيروز , والمارستان, ومن أكثر الشعراء استخداماً للألفاظ غير العربية أصلاً أبو

نواس وكان أحياناً يأتي بها على وجه التَّظَرُّفِ والتَّمَلُّحِ كما يقول الجاحظ. ومن هذا النوع قول أبي نواس:

وَالـمِهْرَجَانِ الـمُدَارِ لِـوَقْـتِـهِ الـكَـرَّارِ
وَالـنَّـوْكِـرُوزِ الكُبَارِ وَجَـشْنِ جَـاهِنْبَارِ
وَآبِـسَـالِ الـوَهَـارِ وَخُـرَّه إِيْـرَانِ شَـارِ

(المهرجان: عيد من أعياد الفرس، الكرار: كثير العودة، النوكروز: النوروز، جشن: عيد، جاهنبار: الشامل العام، آبسال: بداية السنة الفارسية، الوهار: الربيع، خُرّه: موضع التجمع لشرب الخمر، إيران شار: إيران الجميلة).

وضمَّن بعض الشعراء ألفاظ المتكلمين والفلاسفة في شعرهم، مثل الحركة والسكون والروح والجسد والكل والبعض والجوهر والعرض والجزء والقليل والأقل، ومن أمثلة ذلك قول أبي نواس:

يَـا عَـاقِدَ القَلْبِ مِنِّي هَـلاَّ تَـذَكَّـرْتَ حَـلاَّ
تَـرَكْتَ مِـنِّـي قَـلِيلاً مِـنَ الـقَلِيْـلِ أَقَـلاَّ
يَـكَـادُ لا يَـتَـجَـزَّا أَقَلَّ فِـي اللَّفْظِ مِنْ لا

وهكذا تجاوز الشعراء على المعجم الشعري العربي، الأصيل واستخدموا ألفاظاً وتراكيب أعجمية، ووظفوا في شعرهم مصطلحات علمية وفقهية وفلسفية وصوفية وسواها، وقد ابتعد بعض الشعراء عن السليقة، مِمّا هيَّأ لظهور اللَّحْنِ والخروج أحياناً عن القياس الصرفي، وكان علماء اللغة لهم بالمرصاد، كلما انحرفوا دلوهم على انحرافهم، ويفيض كتاب الموشح للمرزباني في مآخذ هؤلاء العلماء.

ومن أهم مظاهر التجديد في أساليب البناء اللغوي للنص الشعري في العصر العباسي الإكثار من البديع، وقد قيل إن بشاراً هو أول من فتح للشعراء هذا الباب، ثم أعجب بذلك الشعراء العباسيون، فأكثروا من ذلك، ومن أبرز من اتبع هذا النهج مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني، وأبو تمّام الطائي، وابن الرومي الذي قال فيه ابن خلكان: (هو صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة، فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في

أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقي فيه بقيه). ومن شعر ابن الرومي الذي يشتمل على هذا النوع من النظم ما يأتي:

صَــاغَـهُ صَــوَّاغُـهُ صِـيَـغَـاً   بِــدَعاً لَــمْ تُــلْـقَ فِــي خَلَدِ

وكذلك قوله الذي وظّف فيه الجناس على نطاق أوسع:

لَوْ تَلَفَّفْتَ فِي كِسَاءِ الكِسَائِي   وَتَـلَـبَّــسْــتَ فَــرْوَةَ الـفَــرَّاءِ
وَتَـخَلَّــلْتَ بِالخَـلِيلِ وَأَضْحَى   سِـيبَـوَيْـهِ لَـدَيْكَ رَهْـنَ سِبَاءِ
لأَبَى اللهُ أَنْ يَـعُـدَّكَ أَهْـلُ الـ   عِـلْـمِ إلاَّ مِـنْ جُمْلَةِ الأَغْبِيَاءِ

3. التجديد في الأوزان والقوافي:

التجديد في الأوزان:

كان الخليل بن أحمد لفراهيدي الرائد الأول في تسجيل أوزان الشعر العرب، إذ نظر في التراث الشعري فعرف أنه يمكن أن تحصر أوزان الشعر العربي في قوالب معينة سماها الوزن، وأطلق على كل منها اسماً، وكانت تلك الأوزان متنوعة، فمنها الطويل كثير المقاطع، ومنها القصير قليل المقاطع، ومنها ما أكثر الشعراء من النظم عليه، ومنها ما هو قليل لم يهتم به الشعراء كثيراً. ويمكننا أن نجمل نواحي التجديد في الأوزان في النقاط الآتية:

. مال الشعراء العباسيون إلى الأوزان المجزوءة والقصيرة، لأنها أوزان رشيقة تلائم الغناء والطرب الذي كان منتشراً في الحاضرة العباسية، وهذا الأمر أكبر من أن نستدل عليه بالبيت أو البيتين، فهو شائع منتشر في دواوين الشعراء العباسيين بكثرة، بيد أن من الطريف أن نشير إلى نوع من الأوزان القصيرة يُسمّى المُوَحَّد، وهو ما نُظِمَ كل شطر منه على وزن تفعيلة واحدة، كقول علي بن يحيى المنجم:

طَـيْـفٌ أَلَـمَّ بِـذِي سَـلَـمْ ... بَـعْـدَ الـعَـتَـمْ يَـطْـوِي الأَكَـمْ

جَـادَ بِـفَـمْ وَمُـلْـتَـزَمْ ... فِـيـهِ هَـضَـمْ إِذَا يُـضَـمّْ

. نظم الشعراء العباسيون على أوزان مهملة لم تكن محببة للشعراء السابقين كالمضارع والمجتث والمقتضب والمتدارك، وهذا الأمر شائع منتشر أيضاً عند العباسيين. فمن ذلك قول مطيع بن إياس، وهو من بحر المجتث:

وَيْلِي مِـمَّـنْ جَفَانِـي ... وَحُـبُّـهُ قَـدْ بَـرَانِـي

وَطَـيْـفُـهُ يَـلْـقَانِـي ... وَشَخْـصُـهُ غَيْـرُ دَانِ

ومنه أيضاً قول أبي نواس، وهو من بحر المقتضب:

حَامِلُ الـهَـوَى تَـعِبُ ... يَسْتَـخِـفُّـهُ الطَّـرَبُ

إِنْ بَـكَى يَـحِـقُّ لَـهُ ... لَيسَ مَـا بِـهِ لَـعِـبُ

تَـضْـحَكِيـنَ لاهِـيَـةً وَالـمُحِبُّ يَنْـتَـحِبُ
تَعْجَبِينَ مِـنْ سَـقَمِي صِحَّتِـي هِـيَ العَجَبُ

ومنه قول سعيد بن وهب، وهو من بحر المضارع:

لَـقَدْ قُلْتُ حِيـنَ قَـرَّ بَتِ الـعِيسُ يَـا نَوَارُ
قِـفُوا فَـارْبَـعُوا قَـلِيلاً فَـلَمْ يُـرْبِـعُوا وَسَـارُوا

. تصرَّف بعض الشعراء بالأوزان المعروفة، كما استحدثوا أوزاناً أخرى تلائم الأذواق وتنسجم مع روح العصر، فنظموا على البحر المستطيل (مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن) وهو عكس الطويل (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن)، ونظموا على البحر الممتد (فاعلن فاعلاتن فاعلن) وهو عكس المديد (فاعلاتن فاعلن فاعلاتن)، كما نظموا على المُتّئد والمطرد والمنسرد.

وكان (عبد الله بن السميدع البصري) أول من أقدم على ذلك، فكان يقول شعراً على أوزان من العروض غريبة في شعره، ثم أخذ ذلك عنه ونحا نحوه فيه (رزين العروضي) فأتى فيه ببدائع.

ونظم أبو العتاهية على الأوزان المهملة التي تستنبط من دوائر الخليل كما في قوله:

لِلْمَنُـونِ دَائِـرَاتٌ يُدِرْنَ صَرْفَهَا هُـنَّ يَـنْتَـقِينَنَا وَاحِـدَاً فَوَاحِدَا

فوزن البيت هو (فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن) وهو عكس البسيط. ومثله قوله:

عَتْبُ مَا لِلْخَيَالِ خَبِّرِيْنِي وَمَا لِي لا أَرَاهُ أَتَـانِي زَائِـرَاً مُـذْ لَيَالِـي

ووزن البيت هو عكس وزن المديد (فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن)، وفي البيت حالة أخرى عروضية، وهي أنه يمكن أن يكون بيتاً واحداً من التشكيل الوافي، أو بيتين من التشكيل المجزوء.

التجديد في القوافي:

استحدث الشعراء العباسيون ما سموه باسم (المزدوج)، والقافية فيه لا تطَّرد في الأبيات، بل تختلف من بيت إلى بيت، بينما تتحد في الشطرين المتقابلين، وتنظم عادة من بحر الرجز، وكان بشار في مقدمة من استعمل المزدوج، وبمجرد أن ظهر الشعر التعليمي ازدهر هذا الضرب الجديد ازدهاراً ملحوظاً إذ صاغ أبان بن عبد الحميد اللاحقي على هذا النمط كُلَّ ما

نظمه من قصص وتاريخ وعلم ودين، ونظم أبو العتاهية على هذا النمط الجديد مزدوجته (ذات الأمثال) التي قال فيها:

حَسْبُكَ مِمَّا تَبْتَغِيْهِ القُوتُ ... مَا أَكْثَرَ القُوتَ لِمَنْ يَمُوتُ
لِكُلِّ مَا يُؤْذِي وَإِنْ قَلَّ أَلَمْ ... مَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَى مَنْ لَمْ يَنَمْ
مَا انْتَفَعَ المَرْءُ بِمِثْلِ عَقْلِهِ ... وَخَيْرُ ذُخْرِ المَرْءِ حُسْنُ فِعْلِهِ

ومن أنواع التجديد في القوافي (الرباعيات)، وهي تتألف من أربعة أشطر، تتفق قوافي أولها وثانيها ورابعها في قافية واحدة، أما الشطر الثالث فقد يتخذ القافية نفسها وقد لا يتخذها، من مثل قول بشار مازحاً مع جاريته ربابة:

رَبَابَةُ رَبَّةُ البَيْتُ ... تَصُبُّ الخَلَّ فِي الزَّيْتِ
لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ ... وَدِيْكٌ حَسَنُ الصَّوتِ

ومن تجديد الشعراء العباسيين في القوافي نظمهم (المسمطات) وهي قصائد تتألف من أدوار، وكل دور يتركب من أربعة أشطر أو أكثر، وتتفق أشطر كل دور في قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير الذي يسمى عمود المسمط وهو يستقل بقافية مغايرة، وفي الوقت نفسه يتحد فيها مع الأشطر الأخيرة في الأدوار المختلفة. ومن أمثلة المسمط خمرية لأبي نواس يقول فيها:

سُلافُ دَنٍّ ... كَشَمْسِ دَجْنِ
كَدَمْعِ جَفْنِ ... كَخَمْرِ عَدْنِ
فَاحَتْ بِرِيْحِ ... كَرِيْحِ شِيْحِ
يَوْمَ صَبُوحِ ... وَغَيْمِ دَجْنِ
يَسْقِيْكَ سَاقَ ... عَلَى اشْتِيَاقِ
إِلَى تَلاقِ ... بِمَاءِ مُزْنِ

(والمخمسات) شبيهة بالمسمطات فهي تعتمد على الأدوار، وكل دور يتكون من خمسة أشطر، الأربعة الأولى متحدة القافية، والخامس قافيته مختلفة ولكنها ثابتة في كل الأدوار.

4. التجديد في الموضوعات:

أولا: الزهد:

معنى الزهد لغة واصطلاحاً: زهد في الشيء وعنه؛ أي رغب عنه وتركه، وهو ضد الرغبة والحرص على الدنيا. وقد اختلفوا في معنى الزهد، فمنهم من قال: الزهد في ترك لقاء الناس، ومنهم من قال في ترك الشهوات، ومنهم من قال في ترك الشبع، وقيل الزهد في ترك ما يشغلك عن الله. وعرفوا الزهد بأنه: (اتجاه سلوكي مضمونه التقشف والإعراض عن الدنيا بالتزام العبادات وأدائها كاملة لبلوغ الجنة والنجاة من النار).

الزهد في العصور السابقة: إنَّ ظاهرة الزهد ليست جديدة على العصر العباسي، فإنَّ الصحابة والتابعين (رضي الله عنهم) كانوا زُهَّاداً، وكان كثير من القصَّاص والوعّاظ ينشدون في العصر الأموي أشعاراً فيها بوادر للزهد، مثل مالك بن دينار والحسن البصري. وحينما جاء عهد بني العباس أخذ الزهد مساراً مستقلاً وأصبح الشعر الذي ينظم فيه فناً قائماً بذاته، يواجه الزندقة والشعوبية والفساد والعبث والمجون، ويسعى إلى الإصلاح.

دوافع الزهد (أسبابه): إنَّ دوافع الزهد متعددة، ومنها الدافع السياسي، إذ إنَّ بروز طبقة متعددة ثرية يدعو الطبقات الأخرى للوصول إلى مستواها، وحين لا يتيسر لها ذلك فإنها تدعو إلى القناعة فتميل إلى الزهد. ومنها أيضاً الدافع الاقتصادي، إذ إنَّ الإنسان ينشد في حياته الإطمئنان، فإذا لم تتوفر في يده المادة فإنَّه يلجأ إلى الزهد لكي يرتاح نفسياً. ومنها العامل العاطفي؛ أي إنَّ هناك قوماً يحبون الزهد أصلاً.

شعراء الزهد: حفظ لنا الأدب العربي في العصر العباسي نماذج كثير من شعراء الزهد بعضها صدر عن شعراء تذبذب بين الترف والزهد، فأبو نواس بدأ حياته ماجناً خليعاً مترفاً، ولكنه ندم في أواخر حياته، فنظم شعراً في الزهد يرجو فيه عفو الله، قال:

يا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً ... فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ

إِنْ كَانَ لا يَرْجُوكَ إِلاَّ مُحْسِنٌ ... فَبِمَنْ يَلُوذُ وَيَسْتَجِيرُ المُجْرِمُ

أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعاً ... فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ

وكذلك أبو العتاهية الذي عاش حياة لاهية عابثة، ولكنه تركها بعد أن تجاوز الخمسين من العمر، والتجأ إلى الزهد وتقوى الله وعبادته، كما في قوله:

إِلَــهِي لا تُعَــذِّبْــنِي فَــإِنِّي ... مُقِــرٌّ بِالَّــذِي قَدْ كَانَ مِــنِّــي
وَمَــا لِي حِــيْلَةٌ إِلاَّ رَجَــائِي ... وَعَفْوُكَ إِنْ عَفَوْتَ وَحُسْنُ ظَنِّي
فَكَــمْ مِنْ زَلَّــةٍ لِي فِي البَرَايَا ... وَأَنْتَ عَــلَيَّ ذُو فَضْــلٍ وَمَــنِّ
إِذَا فَكَّــرْتُ فِي نَدَمِي عَـلَيْهَا ... عَضَـضْتُ أَنَامِلِي وَقَرَعْتُ سِنِّي
يَظُــنُّ النَّاسُ بِي خَـيْراً وَإِنِّــي ... لَشَــرُّ النَّاسِ إِنْ لَمْ تَعْـفُ عَنِّي

وهناك شعراء آخرون قالوا في الزهد من أمثال: عبد الله بن المبارك، والإمام محمد بن إدريس الشافعي، وصالح عبد القدوس.

ومن شعر العلماء في باب الزهد، قول الإمام الشافعي:

أُحِبُّ الصَّالِحينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ ... لَـعَـلِّـي أَنْ أَنَـالَ بِـهِـمْ شَفاعَـةْ
وَأَكْرَهُ مَنْ تِـجارَتُــهُ الـمَعاصِي ... وَلَـو كُـنَّا سَـواءً فِـي البِضاعَـةْ

من خصائص شعر الزهد ما يأتي:

- تظهر في شعر الزهد النزعة الدينية المتشددة، والمبالغ فيها.
- تبرز فيه ظاهرتا الاقتباس، والتضمين من نصوص دينية متعدّدة.
- يعتمد على القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة في استنباط أفكاره.
- تكثر فيه الأدلة، والبراهين المؤدّية لغرضه الأصلي.
- يستخدم بكثرة أسلوب الإقناع بالحجة، والدليل.
- يظهر أسلوبي الترهيب، والترغيب بشكل مباشر، وواضح.
- يتصف بسهولة اللغة، وببساطة العبارات في الصياغة.
- يغلب عليه طابع الوعظ، والدعوة إلى الندم على كلّ ما فات.
- يقوم على التذكير بالآخرة وما عند الله من ثواب وعقاب.
- يتميز بسهولة مفرداته، ووضوح معناها، ودلالاتها.

ثانيا: التصوف:

مفهومه: التصوف طريقة زهدية في التربية النفسية يعتمد على جملة من العقائد الغيبية مِمَّا لم يقم على صحتها دليل في الشرع ولا في العقل.

أصله: اختلف الدارسون في أصل اشتقاقه، فمنهم من يقول إنَّ التصوف كلمة اشتقت من الصوف؛ لأنَّ المتصوفة كانوا يلبسون ثياباً خشنة من الصوف. ويرى آخرون أنها اشتقت من الصفاء وهي مرتبة من المراتب التي لا يصل إليها المتصوف إلا بعد تأمل عميق. وذهب آخرون إلى أنَّها مأخوذة من أهل الصُّفَّة، وهم قوم كانوا في عهد الرسول ﷺ قد انقطعوا للعبادة، وكانوا يصلون في الصف الأول. وقيل إنَّ كلمة التصوف مشتقة من (صوفيا) وهي كلمة يونانية تعني بيت الحكمة.

تأثره بالديانات الأخرى: اختلف الدارسون في حقيقة التصوف فمنهم من يرى أنه إسلامي خالص. ويرى عدد من المستشرقين أنه متأثر بالديانة الهندية أو المسيحية. أما مؤرخو الأدب فيُجمعون على أنَّ التصوف عربي نابع من الإسلام نفسه.

شعراؤه: إنَّ شعراء التصوف كثيرون، ومن أشهرهم ابن عربي، وابن الفارض، وأبو بكر الشبلي، والجنيد البغدادي، وابن مكزون السنجاري، وذو النون المصري، وأبو الحسن الشُشتري، وعفيف الدين التلمساني، والحلاج الذي قُتِل مصلوباً بسبب آرائه التي أنكرها علماء الشريعة ولم يجيزوها، ولا سيما مسألة الحلول والإتحاد، ومن أشعاره قوله:

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا ... نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنَا

نَحْنُ مُذْ كُنَّا عَلَى عَهْدِ الهَوَى ... تُضْرَبُ الأَمْثَالُ لِلنَّاسِ بِنَا

فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَهُ ... وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا

أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ قِصَّتِنا ... لَوْ تَرَانَا لَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَنَا

رُوحُهُ رُوحِي وَرُوحِي رُوحُهُ ... مَنْ رَأَى رُوْحَيْنِ حَلَّتْ بَدَنَا

ومن النساء المشهورات بالعبادة والإستغراق في حب الذات الإلهية الشاعرة رابعة العدوية، ومن أشعارها التي يتجلى فيها الحب الإلهي قولها:

أُحِـبُّكَ حُـبَّيْنِ حُـبَّ الهَـوَى وَحُـبّاً لأَنَّـكَ أَهْـلٌ لِـذَاكَا
فَـأَمَّا الَّذِي هُوَ حُـبُّ الهَوَى فَشُـغْلِي بِذِكْـرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَا
وَأَمَّـا الَّـذِي أَنْتَ أَهْـلٌ لَـهُ فَكَشْفُكَ لِلْحُجْبِ حَتَّى أَرَاكَا
فَلا الحَمْدُ فِي ذَا وَلا ذَاكَ لِـي وَلَكِنْ لَكَ الحَـمْدُ فِي ذَا وَذَاكَا

إن للحب لدي الصوفية مكانة خاصة لا يضاهيها شيء، فقلب الصوفي لا يعرف إلّا الحب ولسانه لا يلهج إلّا بلغة الحب، والحب في اعتقاد الصوفي هو من أنبل العواطف الإنسانية وأجملها وأعمقها أثراً، فالحب هو منطلق كل خير وهو الملهم للإنسان والمحرّك له، وهو الذي يعطي الإنسان معنى إنسانيته، فالإنسان بدون الحب هو صخرة صماء، وقد أدرك الصوفي قيمة الحب هذه فكان الحب ورده وذكره، ومن الأمثلة الجيدة على ذلك قول أبي يزيد البسطامي:

عَجِبتُ لِمَنْ يَقُولُ ذَكَرتُ إِلفي وَهَـلْ أَنْسَى فَـأَذْكُـرُ مَا نَسِيتُ
أَمُوتُ إِذا ذَكَـرتُـكَ ثُـمَّ أَحيا وَلَولاَ حُسْنُ ظَـنِّي ما حَيِـيتُ
فَأَحْـيَا بِالـمُـنَى وأَمُـوتُ شَـوقًا فَكَمْ أَحْيَا عَـلَيْكَ وَكَـمْ أَمُوتُ
شَرِبتُ الـحُبَّ كَـأْسًا بَعْدَ كَأْسٍ فَما نَفِدَ الشَّـرابُ وَمـا رَوِيـتُ

ثالثا: اللهو والمجون:

أما المجون فهو مرتبط بالملاذات والشهوات والعبث والمجاهرة بالمعاصي، حيث خرج مجموعة من الأفراد على المجتمع، وما ألفه بعض الناس من العبادة والزهادة، لذلك نجد المجون يتمثل بعدة معاني منها الإصرار على المتعة وإعلانها، واغتنام اللذات وممارستها جهرا حتى يتحقق الاستمتاع والابتهاج.

فها هو أبو نواس يقول في هذا المعنى:

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر
ودع باسم من تهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر

فالشعراء المجّان" قد أخلصوا لفنهّم إخلاصا يوشك أن يكون منقطع النظير، ومضوا يسجلون فيه كل ما يدور في حياتهم غير مبالين بعرف اجتماعي، أو قيم أخلاقية، أو شعور دينيّ، فهدفهم الأول والأخير أن يعيشوا حياة حرّة لا يقيدّها قيد، ويعبّروا عنها تعبيرا حرا لا يقف أمامه تقليد، وأن يخلصوا لحياتهم وفنهم

إخلاصا لا يشوبه نفاق، وهم في سبيل هذه الغاية لا يبالون برأي الناس فيهم، ولا يكترثون بنظرة المجتمع إليهم ".

يلاحظ مما سبق أن معنى الزهد يدور حول ترك الدنيا والانصراف عن ملذاتها، وشهواتها، أما معنى المجون هو اللهو والعبث، وعدم التقيد بقيد أو تقليد، وبذلك يتضح معنى الزهد والفرق بينه وبين المجون.

شعراء المجون واتجاهاتهم:

ظهر شعر المجون بصورة واضحة جلية في العصر العباسي فقد " كان المجتمع زاخرا بزنادقة وملاحدة وأنواع من ديانات شتى مجوسية وغير مجوسية فمضي كثيرون يطلقون لأنفسهم العنان في ارتكاب المعاصي متحررين من كل قانون للخلق والعرف والدين وكان من أهم تلك العوامل التي هيأت لذلك السلع التي كان تتبا ع وتشتري من الجوار ي والقيان فقد كنّ من اجنا س وشعوب مختلف ة وكن يتفنن في الحيل التي يجذبن بها قلو ب الرجال". فضم هذا المجتمع مجموعة من الشعراء خرجوا عن تعاليم الدين والتقاليد وانكبوا على شعر المجون ليجاهروا بتلك المعاصي التي تحقق لهم الملذات وتشبع شهواتهم، وقد ساعدت عوامل كثيرة على انتشار شعر المجون في ذلك العصر من أهمها:

- أساليب الترف التي جاء بها الأعاجم.
- انتشار الآراء الفاسدة لمذاهب الغلاة من الشيعة.
- محاولات الفرس المتعصبين للقضاء على مقومات المجتمع الإسلامي.
- شيوع القلق والاضطراب في العصر البويهي بسبب تحكم الأعاجم بها وانتقال الدولة من القوة إلى الضعف.

ومن أبرز شعراء المجون في القرن الرابع الهجري: ابن الحجاج ابن سكرة. كما يظهر مجونه في امتداح الحاكم البويهي في بغداد عندما قال:

فديت وجه الأمير من قمر يجلو القذى نوره عن البصر
فديت من وجهه يشككني في أنه من سلالة البشر
إن زليخا لو أبصرتك لما ملّت إلى الحشر لذة النظر
ولم تقس يوسفا إليك كما نجم السهى لا يقاس بالقمر

ومنهم ابن سكرة، ومن قوله في المجون:

اشرب فلليوم فضل لو علمت به بادرت باللهو واستعجلت بالطرب

ورد الخدود وورد الروض قد جمعا والغيم مبتسم والشمس في الحجب

لا تحبس الكأس واشربها مشعشة حتى تموت بها موتا بلا سبب

الشعوبية والزندقة:

الشعوبية هي حركة ثقافية حضارية مناهضة للعرب، أو هي ما يشبه المنظمات التي كان يشرف عليها و يخطط لها و يتعهدها ويساعدها رؤساء من الوزراء والأدباء والكتاب و الشعراء من الموالي الفرس ويربط هذا التعريف الشعوبية بالفرس، لأنهم أكثر الموالي حقدا على العرب، والشعوبيون هم أولئك الذين كانوا ينتمون إلى تلك الشعوب التي اعتنقت الإسلام وينكرون على العرب أي فضل يتميزون به، و أساسهم العصبية التي لا تدخل في دين إلا أفسدته ولا في حياة إلا أهلكتها وبهذا فالشعوبية لم تتخذ صورة المذهب، و لم تطبع بطابع التنظيم، وإنما كانت آراء وحركات متفرقة متناثرة وورد في المعجم الوسيط أنها: نزعة ظهرت في العصر العباسي ، تنكر تفضيل العرب على غيرهم و تحاول الحط منه، و يذكر المستشرق الألماني GOLDZIHER أن الشعوبيين هم جماعة المفكرين والكتاب الذين يمثلون خلاصة جماعة كبيرة يدعون باسم القرآن والسنة إلى المساواة بين العرب والعجم وهذه الجماعة أو الحزب لم تكن ثورية النزعات، و إنما اعتمدت في نشر دعواتها بالدرجة الأولى على المناهج الأدبية خاصة الفن الشعري، فمن هذا المفهوم نستشف أن هذه الحركة قد اتخذت من الأدب مطية لتحقيق مآربها انطلاقا في بدايتها بمساجلات أدبية لمقاومة فكرة السيادة العربية في ميادين الفكر، إلا أنها ما فتأت أن اتجهت على أيدي مفكرين من الفرس اتجاها سياسيا أو دينيا معينا يحمل في طياته بذور الإلحاد والزندقة وظاهرة الشعوبية في العصر العباسي، بينما اصطبغت عند الخوارج والشيعة بصبغة سياسية عنيفة..

بينما ذهب المستشرق الألماني " WELLHAUSEM " إلى اعتبارها حركة دينية لها طابع سياسي اجتماعي، وقد أوضح الدكتور عبد العزيز الدوري مفهومها على أنها (ليست حركة فئة معينة أو طبقة اجتماعية، بل إنها تمثل اجتماع الجهد الذي بذلته فئات مختلفة من شعوب متعددة، لزعزعة السلطان العربي، أو لإضعاف الإسلام وإرباكه، وكل ما يذهب التراث العربي الإسلامي) وقد أفرد (أحمد أمين) في كتابه ضحى الإسلام حيزا للحديث عنها ، فرأى أنها كانت فرقة إما عارضت فخر العرب عليهم، أو رفعت غير

العرب فوق العرب أو أنها احتقرت وصغرت شأن العرب، ويقر أن اسم الشعوبية لم يستعمل إلا في العصر العباسي الأول وأنها نزعة أكثر من أن تكون عقيدة، فليس لها تعاليم محددة وواضحة و الواقع أن هذه النزعة سايرتها في تطورها نزعة أخرى غلبت على هذا العصر وهي نزعة الزندقة والإلحاد، على أن معتنقي هذين النزعتين هم في أغلبهم من سفلة العجم لا من أشرافهم. ومن أبرز شعراء الشعوبية في العصر العباسي: بشار بن بُرد، أبو نؤاس، ديك الجن، أبو القاسم الفردوسي ومهيار الديلمي....

يقول بشار:

إبليس خير من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجار

النار جوهره وآدم طينه والطين لا يسمو سمو النار

إلى أن يقول:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

ويقول أيضا:

جدي الذي أسمو به كسرى وساسان أبي

وقيصر خالي إذا عددت يوما نسبي

وفي الافتخار يقول:

ورب ذي تاج كريم المجد كآل كسرى وكآل برد